١٦٥٢٢

مجله	الفکر الاسلامی
تاریخ نشر :	ربیع الثانی ١٣٩٣
شماره	٥ سال چهارم
شماره مسلسل	
محلّ نشر	لبنان
زبان	عربی
نویسنده	محمد عبدالستار نصار
تعداد صفحات	٣٠ - ٣٧
موضوع	اصول الاخلاق فی القرآن الکریم -٣-
سرفصلها	
کیفیّت	
ملاحظات	

« وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ »
قرآن كريم

أصول الأخلاق في القرآن الكريم

بقلم الدكتور
محمد عبد الستار نصار

(٣)

في القرآن والسنة أساس الأخلاق النظرية والعملية .
وبالأخلاق القرآنية تحددت علاقة الفرد بنفسه ،
وبمجتمعه ، وبخالقه تعالى .
ولقد كانت العرب وجيرانهم ، والدنيا كلها بحاجة إلى
أخلاق القرآن

من الفضائل الخلقية في القرآن الكريم :

بينا فيما سبق ، كيف أشاد القرآن الكريم بفضيلة « الايثار » ، وأنها أساس كثير من الفضائل ، ونبين هنا كيف أشاد أيضاً بفضيلة « العفو » أي كبح جماح النفس عن الانتقام ،

وتحمل ما يثيرها ويزعجها ، وهو في حقيقته إيثار في عالم المعنويات ، قال سبحانه : « والكاظمين الغيظ والعافين عن النَّاس واللهُ يحبُّ المحسنين » ، وعد ذلك من تمام الإرادة : « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

والأحاديث الواردة في كبح جماح النفس عند الغضب كثيرة ، كما في الحديث القدسي : « يقول الله تعالى: يا ابنَ آدم اذكرني إذا غضبتَ ، أذكُرْكَ إذا غضبتُ فلا أهلك فيمن أهلك » .

وقول الله تعالى: « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... » دعوة الى التآخي المثمر ، ومبعثها وحدة الأصل المادي، ثم وحدة الأصل المعنوي في الايمان بالله رب العالمين ، ثم يكون فيه التفاضل بالتقوى . فالقرآن إذن إنما يتحو بالأخلاق نحواً عالمياً ، وذلك كله إعجاز للقرآن ما بعده إعجاز ! ! لأن دعوته الى التعاطف والحب القائم على وحدة العنصر يعطي الأخلاق القرآنية صفة العموم ، التي ترتفع فوق مستوى حواجز الزمان والمكان أو اللون والجنس ، وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وحديث الرسول ﷺ : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » . تقريب لما ينبغي ان يكون عليه المؤمنون من واقع معنوي .

أما المذاهب البشرية ستظل بين أخذ ورد ، لتفسير السلوك الإنساني، وستظل الإنسانية — كذلك — في مستوى خلقي لا تحسد عليه إذا اتخذت هذه المذاهب منهجاً لها في المجال الخلقي ، ولست أقول هذا تعصباً لمنهج القرآن في تقويم السلوك وتربية الأخلاق ، ولكنَّ الإنصاف العلمي هو الذي حملني على هذا القول ، وسنختار مذهب المنفعة الفردية الذي يدعو اليه العالم الانجليزي « هوبز » ليكون أحد وجهي المقارنة .

يرى « هوبز » ، أن غريزة حب البقاء هي القانون الأول ، والأعلى للإرادة الإنسانية ، وأن حركة الإرادة الإنسانية أمر طبيعي كالحركة في مجال الطبيعية . ويقرر أن دافع حب البقاء عند الفرد هو في نفس الوقت العدو الأول لهذا الدافع عند الآخرين ، فكل فرد يتبع هذا الدافع ، وهذا بالضرورة يحمله على الكفاح المستمر في سبيل تحقيق هذا الدافع ، ولما ينشأ عنه من العواطف الخاصة كالكراهية والحقد والاستعلاء والقوة في سبيل الوجود .

ويرى « هوبز » أن الذين يقولون : إن الانسان اجتماعي بطبعه جد مخطئين . ويرى أن الإنسان لا يعدو أن يكون ذئباً بالنسبة لأخيه الإنسان ، وستبقى طبيعته كذلك ، لا يغيرها تعلم ، ولا يزكيها تمدن ، والدليل على ذلك في نظر هذا الفيلسوف المادي النفعي ، أن المرء لا يسعى في هذه الحياة إلا لتحقيق لذته الفردية ، ولو كان تحصيلها على حساب سعادة الآخرين ، بل لا يقف عند هذا الحد من اللذة المادية ، ويرى أن الاحساس بشقاء الآخرين هو كمال للذة الشخصية . وعاطفة الكراهية المتولدة من الإحساس بالآخرين كذلك ، ما دام تحقيق المطامع الخاصة غير مضطرد لوجود هؤلاء ، ويوم يحس الفرد أن شخصاً يقدم اليه نفعاً تتبدل كراهيته حباً ولكنه حب يعادل ما قدم اليه من منفعة . وحتى لا يختلف موضوع الحب بغيره فإن المحبوب في مثل هذه الحالة هو العرض المادي لا الشخص الذي قدمه .

وليس عجباً أن يرجع «هوبز» كل عواطف الإنسان بعد ذلك إلى عاطفة الأثرة والأنانية المسرفة ، ويفسر الفضائل التي أقرها بهذا المعنى أيضاً ، فيرى أن الإحساس بالغير ليس أمراً طبيعياً ، وأنه في حالة من غياب الأنانية والإحساس المؤقت بهذه الغريزة — غريزة الغيرية — إنما هو تدعيم لعاطفة الأثرة أيضاً . فمثلاً عندما يعطف الإنسان على

غيره ، لا يكون ذلك حباً لهذا الفعل من حيث هو ، ولكنه إعطاء من أجل إرضاء نزعة الأنانية وهي لذة الإحساس بأن المعطي قوي ، يستطيع أن يسعد نفسه ويسعد غيره ، ولو قدر أن إنساناً عمل عملاً يسعى في ظاهره إلى تخفيف البؤس عن الآخرين ، فإن هذا العمل في الواقع ليس إلا درءاً لبؤسهم من أن يصيب سعادته ، وهكذا يفسر « هوبز » جميع الأفعال التي تنحو في ظاهرها نحو فعل الخير .

وحسبنا أن نضع أمام قارئنا هذه الصورة ، لكي يقارنها بما ذكرناه قبلاً عن أخلاق القرآن ، وكيف أعطى للمرء حقوقه المتعادلة مع واجباته ، وارتفع به مكاناً علياً ، فوق هذه النزعة المادية المسرفة ، وتحقق بهذا المعنى « الانساني » في الفرد ، وهذا المعنى هو الحد الفاصل بين الانسان وما يشاركه في المطالب البيولوجية من الكائنات الحية.

وكفى بهذا المذهب وما يشاركه في هذا السبيل ، إلغاء للفضائل التي زود بها الإنسان ، مما يناله التكريم والاستخلاف في هذه الأرض ، والسير فيها بمنهج متعادل بين المطالب المادية والمعاني الروحية ، التي من أخص خصائصها ، إحساس الفرد بأنه عضو في جماعة يعمل لصالحها ، ويتنازل عن بعض مطالبه في سبيل صالحها .

ونتساءل : ماذا جنت تلك المذاهب النفعية من وراء ما ذهبت إليه ؟ إننا نعتقد أن هذه المذاهب تحمل في طياتها عوامل فنائها ، وحسبنا في ذلك أنها معادية للفطرة ، التي تقر الاجتماع الإنساني ، ولن يستقر ذلك الاجتماع بالضرورة إلا بالموازنة بين الواحد والجماعة ، والإحساس المتبادل بينهما .

وإن ما نعانيه هذه الأيام ، بل وما عانته البشرية في تاريخها الطويل من حروب طاحنة ، إنما هو أثر من آثار نزعة الأنانية التي تبررها المذاهب النفعية ، ويوم تتعدل تلك النظرة بالرجوع إلى القانون الطبيعي ، المستمد من الفطرة الإنسانية الصافية ،

سوف تضع تلك الحروب أوزارها ويعيش الانسان في سلام دائم . وهذا ما تهدف إليه الأديان عموماً والدين الاسلامي على وجه أخص .

والرقي المادى لو لم تصاحبه أخلاق راقية ، توازيه إن لم تزد عنه ، فإنه الى دمار وخراب .

عناصر المسئولية الخلقية في القرآن الكريم :

إن أهم عناصر المسئولية الخلقية في القانون الأخلاقي هي معرفة العمل الذي يقوم به المرء ، بحيث يكون في يقظة تامة ووعي كامل ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى يكون أهلاً لأن يكون مسئولاً عن تصرفاته . وأن يكون المرء حراً حين يفعل أو يترك ، وأن يكون شاعراً بوجود قانون أدبي أخلاقي يكون مسئولاً أمامه إن قصر في فعل من الأفعال .

ومع إيماننا بأن القرآن الكريم ينبغي أن تؤخذ منه قواعد السلوك وغيرها . ونحن الآن بصدد البحث المقارن بين ما جاء به القرآن في هذا السبيل ، وما جاءت به المذاهب البشرية ، وغايتنا إبراز سبق القرآن لتلك المذاهب . وحسبنا أننا لم ندع سلفاً أن القرآن قد حاز في هذا المضمار قصب السبق ، حتى لا نتهم بالتقصير في الاستدلال على هذه الدعوى ، أو نتهم بعدم الحيدة في المنهج ، وهذان الامران يبرران لنا وجه المقارنة .

العنصر الاول : اليقظة التامة والوعي الكامل بالفعل موضوع المسئولية الخلقية : كل ما جاء في القرآن الكريم من تشريعات تنظم الحياة الدنيا والآخرة ، من مأمورات ومنهيات ، إنما هي مسوقة للذين اكتملت لديهم شروط التكليف ، وهذه الشروط في عمومها تساوي التكليف الخلقي في عمومه ، فإذا كانت الأحكام الشرعية لا تجب إلا على من توافرت فيهم أهلية العمل بهذه الأحكام ، وهي الاسلام والبلوغ والعقل ، فإن المسئولية الخلقية تبعاً

لذلك ترتبط بهذه الشروط .

والقرآن الكريم قد راعى من يعجزون عن التكاليف الشرعية . فقال سبحانه : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج.. » وقال سبحانه : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » . وقال ﷺ : « رفع القلم عن ثلاث . عن الصبي حتى يكبر وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ » وقال أيضاً : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وعلى هذا فلا مؤاخذة على عمل غير صادر عن وعي كامل ويقظة تامة .

العنصر الثاني : معرفة عاقبة العمل الذي يقدم عليه الفرد في حدود اجتهاده .

قال تعالى لرسوله : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » . فهذه الآية الكريمة تدعو الفرد إلى التبصر والنظر إلى نتيجة عمله . وتوجه النظر لمعرفة موقع الفعل موقعاً صحيحاً من أحكام الدين باستحضار ما عرفه من أحكامه ، وإسقاطها على فعله . وقد بين الله للإنسان طريق الخير وأمره باتباعه ، كما بين له طريق الشر وأمره باجتنابه ، قال تعالى : « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » .

وقال ﷺ : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ... الخ » . فعلى الإنسان أن يعلم ، ويتبين ، ويبتعد عن الشبهات ، لأنه مسؤول ومجزى بعمله .

والقرآن الكريم يعالج مشكلة إيقاظ الضمير على أساس من تنازع النفس بين المعنى المادي والمعنى الروحي ، فإنه لما كانت النفس غالباً تنزع إلى التشبه بما هي متلبسة به ، وهي المادة ، كانت هناك شبه معركة قائمة بينها وبين الإرادة الخيرة ، فإذا ما كانت الغلبة للنفس في غيبة

من الإرادة وعملت مـا يحلو لها ، كانت في هذه الحالة في حاجة ماسة إلى علاج حاسم ، يردعها عن المضي فيما هي بسبيله ، لذا رأينـا القرآن الكريم يعالج هذه النزعة في صورة استحضار المغيب الذي يكون محل مراعاة واحترام أو على الأقل الذي ينبغي أن يكون ، قال تعـالى : « ألم يعلم بأن الله يرى » . فالذي يقدم على الشر والأذى بعد هـذا غير إنسان .

وحديث الرسول ﷺ : «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنـه يراك » . فالاحسان كما بينه الحديث ، وكما جاء في كثير من الآيات ، هو إخراج الفعل على صورة طيبة ، لأن الله يراقب الفاعل حين يفعل . فيخرج فعله على صورة ترضيه : « والله يحب المحسنين » .

من هذا العرض يتبين لنـا أن الإحسان معناه أن يكون الضمير مراقباً لله تعالى مراقبة تامة ودائمة، في كل فعل من أفعال النفس . وإذا كان الضمير يقظاً في كل وقت ، وعند إخراج كـل فعـل ، فإن جميع الأفعال لا شك ستقع موقعاً مقبولاً عند الله سبحانه ، لأنهـا اتصفت — والحالة هذه — بوصف الأعمال الصالحات التي يرفعها الله إليه كما ترشد اليه الآية الكريمة « والعمل الصالح يرفعه » .

وتسعى العبادات في الأسلام إلى تحقيق المعنى الأخلاقي من وراء أفعالها الظاهرة ، وأن أثر هذه الأفعال لو لم يظهر في السلوك والعلاقات الاجتماعية فإنها تكون والحالة هذه غير واقعة موقعهـا الصحيح ، يقـول الرسول الكريم : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة لـه » . ويقاس على الصلاة غيرهـا من العبادات . ففلسفة التشريع في الإسلام تهدف الى ايقـاظ المعنى الخلقي في المجالين الفردي والجماعي ، كما تدعو من ناحية أخرى الى الحيوية والنشاط، في صورة صدق الفرد مع نفسه ومع ربه ومع المجتمع الذي يعيش فيه . وهذه الصفة « الصدق » هي من أسمى الفضائل الأخلاقية .

العنصر الثالث : الحريـة عند مباشرة الفعل :

القرآن الكريم لم يغفل عنصراً آخر، له أثره في عناصر المسئولية الخلقية وهو « الحرية » . والمراد بها هنا المعنى المقابل للإكراه على الفعل : وقد رفع الإسلام التكليف عن المكره، واعتبره غير مؤاخذ على فعله ، حتى ولو كان ذلك متعلقاً بالعقيدة نفسها، ولقد ساق القرآن الكريم في هـذا المقام مثلاً للذين يكرهون على فعل شيء يعصي الله ورسوله ولكن قلوبهم مطمئنة لخلافه ، فقال تعالى : « إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان » . ولكي تأخذ الصورة حظها من الكمال كمثل لهـؤلاء قرنها بصورة الذين يهشون للكفر وتنشرح له صدورهم فقال : « ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذابٌ شديدٌ » .

وقال تعالى : « ولا تُكرِهوا فتياتكم على البغاء إنْ أردْنَ تحصُّناً لتبتغوا عرَضَ الحياة الدنيا ومن يُكرِههُنّ فإنّ الله من بعْد إكراههِنّ غفورٌ رحيمٌ » . ففي الآية نهى عن الإكراه على البغاء عند إرادة التحصن ، وفي هذا تقرير لمعنى الحرية في الفعل أو في الترك حتى إذا بلغ الأمر مبلغاً لا يستطيع الفرد التصرف في الفعل بمحض إرادته فإنه اذا وقع منه الفعل ظاهراً على شكل يخالف ما أمر الله، فإنه غفور رحيم .

والناظر في هذه الآية والتي قبلها يلاحظ أن إحداهما — الأولى — جاءت في مقام الإكراه على الكفر . وهذا أمر متصل بالاعتقاد ، وأن الثانية جاءت في مقام الإكراه على فعل المنكر — على فرض وقوعه — وهذا أمر متصل بالعمل والسلوك ، ويفهم منها أن الله وراء الفعل الظاهر — قلبي أو حسي — بالمغفرة للفاعل، ومؤاخذة الحامل على الفعل .

ومن هنا يتبين لنا كيف راعت عناصر المسئولية الخلقية في القرآن الكريم ، حرية الاعتقاد والسلوك معاً. وكيف كانت في مجموعها وحـدة متكاملة ، تهدف الى أيقاظ مشاعر الفرد ومعرفته لعاقبة فعله في جو من عدم الاكراه حتى يكون مسئولاً عن هذا الفعل مسئولية كاملة .

الجزاء في القرآن الكريم :

المسئولية والجزاء من الأمور المتقابلة ، بمعنى أنه لا تذكر المسئولية إلا ويصاحبها في التصور الذهني الجزاء ، وكذلك في الوجود الواقعي . وقد قرر القرآن الكريم أن هذا الجزاء يكون في حياتين : الحياة الدنيا . وفيها ينعم الفرد براحة الضمير ورضا النفس وطمأنينة القلب والأمن والاستقرار ، ويرشد إلى هذه المعاني قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ..» . ثم في الحياة الآخرة : وفيها أعد الله للمحسنين المؤمنين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، يقول تعالى : « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنّات الفردوس نُزلاً . خالدين فيها لا يَبْغُون عنها حولاً » . والأعمال الصالحة لن تضيع سدى قال سبحانه : « إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنّا لا نُضيعُ أجر من أحسنَ عملاً » . فاطمئنان القلب في الحياة الدنيا بنعمة الأمن ، والثواب المنتظر في الحياة الآخرة حافزا قويان يضاعفان العمل الصالح ويدفعا إلى الزيادة فيه .

وهنا تبرز القيمة الحقيقية لمنهج القرآن في الأخلاق ، وكيف اتخذ من واقع النفس البشرية أساساً لرسم هذا المنهج ، فلا هو بالمنهج المثالي المتطرف الذي ينظر إلى الفعل من حيث هو ، فلا يطلب من الفاعل أن ينتظر ثواباً على فعله بدافع أن هذا أمر لا يخلو من المنفعة ، التي تحول العمل إلى ما يشبه المبادلة والتجارة . ولا هو بالمنهج المادي المتطرف أيضاً الذي لا يرى للعمل من ثمرة إلا ما يحصله من منفعة ولذة شخصية . فأما لماذا كان المنهج الثاني المتطرف غير متسق مع الفطرة الانسانية فهذا ما سنبينه في مقال آت إن شاء الله ، ونقارن بين هذا المنهج وبين المثالية التي جاء بها القرآن الكريم .

محمد عبد الستار نصار